إشكالية المنهج في البحوث الأنتروبولوجية

د. سيكوك قويدر أستاذ محاضر قسم أ بجامعة عبد الحميد بن باديس بمستغانم
د. قريصات الزهرة أستاذة محاضرة قسم أ بجامعة عبد الرحمن بن خلدون بتيارت

يعتبر المنهج بالنسبة لكل علم قائم بذاته إحدى الشروط الثلاثة لوجوده واستقلاليته. كل علم لا يكون كذلك إلا إذا اتضحت معالم موضوعه وتبينت أهدافه وغاياته وتحدّد المنهج العلمي الذي يعتمد عليه. إن تلك الشروط هي ما يفرق بين العلم واللا علم. و الشروط ذاتها أساس ما يفرق بين مختلف العلوم ويحدد لكل منها مجالاته وحدوده. و إذا كانت مسألة المنهج في العلوم الطبيعية والتجريبية أمرا محسوما لكونها تشترك في الاعتماد على المنهج التجريبي مهما اختلفت في الموضوع والأهداف فإن الأمر بالنسبة للعلوم الانسانية والاجتماعية مختلف تماما ، قد تعتمد هذه العلوم على التجريب مع مراعاة ما يميز موضوع كل منها. وتعتمد أيضا على مناهج علمية أفرزتها التراكمات المعرفية من خلال النظريات العلمية.

إن اختيار المنهج العلمي المناسب ليس عملية هينة فهو الدعامة الاساسية لإرساء قواعد و نظريات في العلوم المختلفة وهو يعتمد على هدف البحث و نوع الدراسة و طبيعة و خصائص المبحوثين،و درجة التعمق. هذه هي الاشكالية المطروحة في العلوم الانسانية و الاجتماعية بما فيها الأنثربولوجيا و ذلك بسبب تعقد الظواهر الانسانية والاجتماعية و عدم ثباتها كما هو الحال في العلوم الطبيعية ، يضاف إلى هذا حداثة الأنثربولوجيا كعلم ارتبط مدة طويلة من الزمن بالأهداف الاستعمارية على حساب الأهداف العلمية عندما كان موضوعه منحصرا في المجتمعات البدائية التي اندثرت وانتهت.وليست الأنتروبولوجيا الحديثة وليدة التطور النوعي في موضوع الأنتروبولوجيا فحسب بل يكمن الأمر في الحراك المعرفي و المنهجي بين مختلف العلوم الاجتماعية والبحوث الأنتروبولوجية كما يؤكده كلود ليفي ستروس (C.L STRAUSS)الذي يرى "أن صعوبة الانطواء في الأطر القائمة ،ذلك هو مصير العلوم الفتيه و لسنا نسرف اذ نقول أن الانثربولوجيا هي،و من بعيد جدا ،أفتى العلوم الفتية التي هي العلوم الاجتماعية،و أن الحلول الإجمالية التي تلاءم العلوم التي تقدمتها تعرض بالنسبة لها طابعا تقليديا،إنها تقريبا تنطلق من العلوم الطبيعية،وتستند إلى العلوم الإنسانية،و تتطلع نحو العلوم الاجتماعية ". (كلود ليفي ستروس 1977 . ص 414)

إن فهم هذه الإشكالية غير متاح دون فهم التداخل في مسألة المنهج بين الانتروبولوجيا و مختلف العلوم الاجتماعية.

يعرف ديبولد فاندالين (Debold Van Dalen)البحث العلمي على أنه " المحاولة الدقيقة الناقدة للتوصل إلى حلول للمشكلات التي تؤرق البشرية و تحيرها " (ديبولد فاندالين 1969 ص 9) و خطوات البحث متداخلة و متشابكة ينبغي تناول موضوعه كوحدة متكاملة.

و المنهج العلمي هو أساس مسعى الباحث أما اختيار المنهج فهو توضيح المسار الذي سينحاه في تحقيق هذا المسعى في الميدان ، و يعرف على انه " الوسيلة التي يمكننا عن طريقها الوصول إلى الحقيقة أو إلى مجموعة من الحقائق ، لأي موقف من المواقف و محاولة اختبارها للتأكد من صلاحيتها في مواقف أخرى و تعميمها لنصل إلى ما نطلق عليه اصطلاح نظرية و هي هدف كل بحث علمي ". (جمال زكي ،دار الفكر العربي القاهرة 1962 ص 8)

و يحدد معجم Petit Robert دلالة منهج Méthode في " السيرورة المتمثلة في مجموع الخطوات التي يتتبعها العقل لاكتشاف الحقيقة و الاستدلال عليها . ولا نجد فصلا في اللغة الفرنسية بين كلمتي منهج وطريقة:كلاهما يدل على معنى واحد للفظ Méthode. أما في اللغة العربية فالطريقة تعني المنهج أو الأسلوب Style الذي يحدد خصوصية الفرد الدارس أو المتعلم. وأما التقنية تشير إلى الوسيلة التي تم توظيفها في مرحلة معينة من الطريقة أو المنهج، كما أنها تسمح بتنفيذ الطريقة أو المنهج بالشكل الملائم ". (عبد الكريم غريب، منشورات عالم التربية،ط 1 ، 1997 ، ص 31)

المصطلحات القريبة من مصطلح منهج:

يعتبر مصطلح – منهج – مصطلحا ذا أبعاد تقترن بماهية استعمالاته ، فهو يجمع بين الاستنباط و الاستقراء و هما عنصرا ما يعرف بالتفكير التأملي أي الجمع بين ملاحظة الظواهر و تجميع البيانات عنها ، ثم دراسة النظريات التي تستنبط منها الفرضيات و الانتقال بها إلى ميدان البحث لاختبار صحتها ، من خلال استخدام وسائل القياس المختلفة.

تتداخل بعض المصطلحات مع مصطلح منهج ، نذكر من ذلك مصطلح "تناول – approche –" و يدل على استلهام فكرة معينة أو الانتساب إلى مدرسة ما في تحصيل الحقائق و تفسيرها ، و مصطلح "النموذج النظري –paradigme –" و هو "يحدد مجموع التصورات والممارسات التي يهتدي بها الباحثون حسب تخصصاتهم و المدارس الفكرية السائدة في مرحلتهم ، ويعتبر النموذج النظري كأعلى نموذج معياري أو مجموعة من المرجعيات النظرية و التطبيقية الخاصة بميدان معرفي معين ، و التي يشترك فيها خلال فترة زمنية معينة الباحثون في هذا الميدان "(موريس أنجرس (Maurice ANGERS) ترجمة(الجزائر 2004 ص ص 99-100).

و يمتاز المنهج العلمي بالموضوعية بحيث لا تتعلق نتائجه بوجهة نظر شخصية بل هو يعتمد على الملاحظة العلمية والخطوات المنطقية في دراسة الظواهر الاجتماعية و الانسانية. إنه يرتقي بالدراسة والبحث إلى مستوى أبعد عن المؤثرات و الميول الشخصية والاجتماعية.

كما يمتاز المنهج العلمي أيضا بالتعميم و يعنى به الخروج بقواعد عامة تمكن من تفسير ظواهر مشابهة ، وليس هذا بالأمر السهل في العلوم الانسانية و الاجتماعية نظرا لطبيعتها من حيث تباين الكائنات البشرية من حيث العواطف والاستجابات للمؤثرات المختلفة واختلاف المواصفات والمميزات داخل الجماعات والمجتمعات البشرية.

و يعتبر التنبؤ أحد خصائص المنهج العلمي و كن ليس بنفس الدقة في العلوم الطبيعية بسبب عدم القدرة على التحكم في المتغيرات المحيطة بالظواهر وضبطها و تنظيمها ، و لكن مرونة المنهج العلمي و قابليته للتنوع تجعله يتلاءم مع المشاكل المختلفة في دراسة العلوم الطبيعية و الانسانية و الاجتماعية على السواء .

تطبيق المنهج العلمي في البحوث الاجتماعية والانسانية

يطبق المنهج العلمي في العلوم الطبيعية والانسانية و الاجتماعية على السواء و لكن ليس بنفس الدقة ، و ذلك بسبب طبيعة الظواهر في الميدانين ، ويرجع ذلك إلى :

_ تعقد الظواهر الاجتماعية فالإنسان هو أكثر الكائنات الحية تعقيدا ، و السلوك الانساني يتأثر بعدة عوامل داخلية و خارجية تصعب من التحكم بالظاهرة الانسانية و قياسها بدقة تامة ، و لذلك يبقى هذا التعقيد نسبيا يخضع لمعايير معرفة الباحث بالظاهرة المدروسة .

_ صعوبة وضع الظواهر الاجتماعية في ظروف قابلة للضبط و الرقابة، فالباحث يمكنه مراقبة الظاهرة و لكنه لا يستطيع خلقها بل عليه انتظار حدوثها.

_ صعوبة التجانس في الظواهر الاجتماعية و الانسانية فلكل ظاهرة "شخصيتها" المنفردة و غير المتكررة.

_صعوبة دراسة الظواهر الاجتماعية و الانسانية دراسة موضوعية ، فهي دائمة التغيير نتيجة طبيعة الكائن الانساني .

تحديد منهج البحث

إن تحديد إشكالية البحث سيؤدي حتما إلى اختيار المنهج ، و على مستوى ملموس أكثر سيؤدي إلى تحديد التقنية الأساسية والتقنيات المساعدة في جمع البيانات ، و يمكن الاعتماد على مناهج البحث من خلال المعالجة الكمية أو الكيفية حسب طبيعة الموضوع وأهداف الباحث والمنحى الذي يسلكه في الاجابة على الأسئلة التي تثيرها إشكالية البحث. و إنه للمن الخطأ الشائع أن نتحدث عن مناهج كمية وأخرى كيفية لأن المنهج العلمي واحد واستعماله هو الذي يختلف من بحث إلى آخر ومن باحث إلى آخر. وإذا كانت المناهج العلمية في العلوم الانسانية والاجتماعية متعددة على عكس العلوم التجريبية والطبيعية التي تعتمد على المنهج التجريبي فقط فهذا لا يعني أن عدد المناهج لا يحصى ولا يعد يحاول البعض تكريسه لدى الطلبة والباحثين.

إن المناهج العلمية مرتبطة بالنظريات التي أنتجتها وهي لا تتعدى أصابع اليد الواحدة حيث نجد أن المنهج التجريبي قد كرسته كل النظريات العلمية في مختلف العلوم الطبيعية والتجريبية وتبنته العلوم الاجتماعية بمراعاة خصوصية الظاهرة الاجتماعية. وانطلاقا من استخدام المنهج التجريبي في العلوم الاجتماعية توصل العلماء إلى انتاج نظريات علمية كرست مناهج علمية جديدة هي المنهج الجدلي والمنهج الوظيفي والمنهج الهيكلي و الإثنية المنهجية.و رغم المحددات الأساسية والمواصفات التي تميز كل منهج علمي فإننا كثيرا ما نصطدم بمن يتحدث عن المنهج الوصفي والمنهج التاريخي والمنهج التحليلي والمنهج الكمي والمنهج الكيفي...وغيرها من المناهج .

والواقع هو أن الوصف مرحلة أساسية في استخدام جميع المناهج العلمية، كما أن المعطيات التاريخية والتراكم المعرفي حول الظاهرة أدوات مساعدة في البحث لفهم الظاهرة في حالتها الراهنة (la synchronie) من خلال الحالات السابقة لهذه الظاهرة (la diachronie) بالإضافة إلى أن الباحث كثيرا ما يعتمد على قوانين ومعارف علوم أخرى للإلمام بمختلف جوانب الموضوع المدروس. فالقوانين الإحصائية ليست إلا معارف علمية توصل إليها علماء الرياضات عن طريق التجريب ولا تمثل بأي شكل من الأشكال ما يسميه البعض بالمنهج الإحصائي.

إننا نعتقد إلى حدود الجزم بأن هذه الفوضى في إسقاط مصطلح منهج على توجهات الباحث في استخدام المنهج العلمي إنما هي ناتجة عن عدم امكانية التفريق بيم المنهج والمقاربة وهذا ما كرسته الترجمات العربية الشرقية للمؤلفات العلمية في الغرب حيث ترجمت المقاربة التاريخية l'approche historique بالمنهج التاريخي والمقاربة الكمية l'approche quantitative بالمنهج الكمي وغيرها من التسميات التي لا علاقة لها بالمنهج.

خصوصيات استخدام المنهج التجريبي في العلوم الاجتماعية

إذا كان المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية يتمثل في إعادة إنتاج الظواهر من خلال الملاحظة المباشرة والوصف الدقيق لمراحل حدوثها فإن هذا المنهج عندما يستخدم في حقول العلوم الاجتماعية يصبح تغييرا متعمدا و مضبوطا للشروط المحددة لظاهرة ما و ملاحظة و تفسير الظواهر الناتجة عن ذلك. و يتميز بإحداث التغيير في المتغير المستقل مع ملاحظة الآثار المترتبة على المتغير التابع. يهدف المنهج التجريبي إلى إقامة العلاقة التي تربط السبب بالنتيجة بين الظواهر و ا لمتغيرات من خلال التجارب وهي نوعان تجارب معملية و تجارب ميدانية مرتبطة بدرجة التحكم في العوامل الخارجية.

و في حين تجرى التجارب المعملية في بيئة يمكن للباحث فيها التحكم بظروف التجربة و عزل المؤثرات الخارجية أو ضبطها مما يجعل نتائجها تتميز بالدقة غير أنها مصطنعة فسلوك الأفراد في المعمل على مر الزمن لا يطابق سلوكهم وهم تحت التجربة ولا يطابق سلوكهم الفعلي في الحياة. نجد أن التجارب الميدانية تكون في المكان الطبيعي وإمكانية ضبط ظروف التجربة أقل، و لكن هذا لا ينفي صدق النتائج و قربها من الواقع أكثر مع تمركز عامل تأثير العوامل الخارجية بسبب عدم القدرة على السيطرة على ظروف التجربة.

ولهذا فإن المنهج التجريبي يحمل بصمات العلوم الطبيعة والعلوم التجريبية الدقيقة و يعتبر منهجها النموذجي و لكنه يبقى قاصرا أمام طبيعة العلوم الانسانية ، لأن تعقد الكائن البشري و استحالة اخضاعه للتجربة يعتبر عائقا أمام هذا المنهج في فهم الظواهر. إن هذا العجز في اعتقادنا هو ما يمكن أن يكون الحافز الأساسي لتطوير البحث العلمي في العلوم الاجتماعية من خلال تطوير البحوث الميدانية وتحسين أداء الباحث. وهذا هو التحدي في الوقت الراهن و المستقبل أمام العلوم الاجتماعية عامة و الانتروبولوجيا بوجه الخصوص.

البحث الميداني في الأنتروبولوجيا

إذا كان البحث الميداني في العلوم الاجتماعية إحدى التوجهات المنهجية والمعرفية التي تمثلها مجموعة من المدارس والاتجاهات فإننا نعتقد أن البحوث الأنتروبولوجية لا يمكن أن تنجز إلا ضمن هذا التوجه. وإذا كانت العلوم الاجتماعية تعمل على إنتاج المعنى من خلال الاستقراء والاستنتاج والاستنباط مما يجعلها علوما تخمينية فإن الأنتروبولوجيا علم وصفي دقيق يهدف أساسا إلى وصف سيرورة إنتاج المعنى في المجتمعات الانسانية من خلال علاقة الثقافة بالشخصية وذلك ما تؤكده مارغريت ميد Margaret MEAD في تعريفها لموضوع الأنتروبولوجيا : " إنّنا نصنف الخصائص الإنسانية للجنس البشري – عبر الأزمان وفي سائر الأماكن – كأنساق مترابطة ومتغيرة وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطوّرة. كما نهتمّ أيضاً بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وبتحليلها إضافة إلى البحث في الإدراك

العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته."(Mead, 197p.280) ويذهب موريس أنجرس في نفس الاتجاه من حيث أن الأنتروبولوجيا من خلال البحث الميداني "تسمح بدراسة طرق العمل والتفكير والإحساس لدى المجموعات البشرية. " (Maurice ANGERS) ترجمة (الجزائر 2004 ص 106)

لقد كانت الأنتروبولوجيا كثيرا ما تلتقي وتتقاطع في تطبيق المنهج التجريبي فيما يعرف بـ "الدراسة الحقلية "مع البحث الميداني في العلوم الإنسانية و الاجتماعية إلا أنها كانت تستقل ببعض التقنيات و تستعير تقنيات أخرى في دراسة المجتمعات البدائية والتقليدية والمتمدنة على حد السواء حتى اعتبرت في كثير من الأحيان فرعا من فروع علم الاجتماع.

تقنيات البحث في الانثربولوجيا

تتميز دراسات القرن التاسع عشر الميلادي في مجال الانثربولوجيا باتجاهات جديدة ، من أهم تلك الاتجاهات دراسة النظم الاجتماعية من زاوية اجتماعية صرفة أي في حدود البناء الاجتماعي و ليس في حدود علم النفس الفردي أو المسلمات الفلسفية ، بمعنى أن النظم الاجتماعية كانت تفسر بنظم اجتماعية أخرى.

ويعرف رواد الانثربولوجيا الاجتماعية في القرن 19 م باسم "علماء المقاعد الوثيرة " لعدم اعتمادهم على أنفسهم في جمع المعلومات عن المجتمعات التي يدرسونها ،أي أنهم لم يستخدموا منهج الدراسة الميدانية (د.عاطف وصفي ص 27).

في نهاية القرن 19 استكمل الانثربولوجيون عناصر الانثربولوجيا الاجتماعية بتصنيف المجتمعات على أساس أبنيتها الاجتماعية بدلا من حضارتها ،وشمل هذا الاستكمال تحديد التوجه الرئيسي للأنثربولوجيا الاجتماعية و هو "الدراسة الحقلية" أو "الميدانية" مما جعل ايفا نز بريتشارد Edward Evan Evans-Pritchard يصنفها كرحلة تحول في تاريخ الانثربولوجيا الاجتماعية .لكن هذا لا ينفي أن نقاط الضعف في الدراسات الحقلية الأولى التي قام بها الأنثروبولوجيون أنفسهم تمثلت في جهل اللغة المحلية والتي تتطلب وقتا لتعلمها. إن عدم القدرة على ذلك بسبب قصر مدة الدراسة الحقلية كان يؤثر أيضا في عدم توطيد الثقة بين الأهالي (مجتمعات البحث) والباحثين،و لكن انجذاب بعض العلماء من تخصصات أخرى أثرى الانثروبولوجيا الاجتماعية. وكان من بينهم على وجه الخصوص : "هادون"Haddon Alfred Cort العالم الحيواني، و"ريفرز" William Halse Rivers العالم النفسي وطبيب الأمراض العصبية، و"سيلجمان" Charles Gabriel Seligman الطبيب والباحث في علم الأمراض.

وإذا كانت العلوم الاجتماعية في الوقت الراهن تتعرض لمشاكل فيما يخص تطبيق المنهج العلمي بسبب قلة القوانين الاجتماعية في مقابل قوانين العلوم الطبيعية مما يطرح و بحدة مسألة الموضوعية، فإن التشابه في منهج و مواضيع العلوم الاجتماعية مع الانثربولوجيا الاجتماعية أدى إلى تداخل طرق البحث. وأصبحت الأنتروبولوجيا بذاتها عرضة لهذه المشاكل خاصة في المجتمعات التي لم تتأسس فيها كفرع أكاديمي قائم بذاته.

الطرق الانثربولوجية

إن طبيعة الموضوع و مجتمع البحث يفرض طرقا في جمع المادة الاثنوغرافية و رغم أن الملاحظة بالمشاركة تعتبر"الطريقة الملكية في البحث الانثربولوجي" (محمد عبده محجوب 2005 ص 52) إلا أن هناك مواضيع و ظواهر تحتاج إلى أكثر من هذه الطريقة منفردة في دراستها لذا كان لابد من استخدام طرق أخرى أو مزاوجتها لدراسة الظواهر المختلفة .

لقد مرت الدراسة الميدانية في الانثربولوجيا في بداياتها بالاعتماد على المعلومات التي كان يجمعها ضباط الادارة الاستعمارية و المبشرين و الرحالة و التجار وهم في الغالبية من غير المتخصصين،مما جعل هذه الكتابات الأنتربولوجية موسومة بالمبالغة و التضارب و سوء التأويل ، لذلك كان لزاما على الباحثين إيجاد طرق جديدة تضمن مصداقية أكبر للمعلومات و ترتقي بالبحث الانثربولوجي إلى المستوى العلمي.لقد دفع ذلك بالباحثين إلى النزول إلى الميدان لتحقيق هذه المصداقية ، إن الولوج إلى ميدان الدراسة ليس سهلا بل لابد من أن يتسلح الباحث بمجموعة من الوسائل قادرا على استثارة الآخر ليعبر عن ذاته،أن يتعلم معطيات المجتمع المبحوث خاصة اللغة بما تحمله من معاني و دلالات خاصة بمجتمع البحث لأن "التطبيق في الميدان ،هو أولا مجموعة من العلاقات التي يجب ارساؤها مع غرباء في حيزهم

الجغرافي ،المشاركة في حيز مكاني اجتماعي اقتصادي سياسي وعقلي"صوفي كاراتيني (Sophie Caratini 1999 ص 35) وتكون هذه المشاركة من الطرفين، فالباحث يستقبل من طرف المجتمع المبحوث ككائن لديه خلفيته الثقافية، يصنعون له حيزا فيزيقيا و ثقافيا وصورة و دورا معينا يختلف حسب نظرتهم وفهمهم لماهية وجوده بينهم، كما ينقل الباحث اسقاطاته المختلفة لمجتمع البحث. إنه لمن الصعب الاستقلال التام عن المرجعية والخلفية الثقافية للباحث في تعامله معهم مما يجعل العلاقة الطرفين بعيدة كل البعد عن ماهية العلاقة الطبيعية.

إن الباحث في حاجة إلى استثمار لمستويات مختلفة شخصية و عقلية عند الدخول في علاقة من ثقافة مختلفة فعامل الانسانية و التأثير والتأثر وارد وجلي لأن صورة الأنا عند الفرد ترتقي و تتطور منطلقا من الآخرين وهم هؤلاء الذين نشترك معهم في المرجعية و الأهداف،و لكن الباحث الأنثروبولوجي في مجتمع غريب عنه يتعرض لتشوه في هويته بسبب وجوده في عالم تختلف فيه القيم و المعطيات العقلية و المعرفية وسيؤدي هذا الاختلاف حتما إلى تشويه الحقائق التي يصبو الباحث الوصول إليها.

ويعتمد الباحث الانتروبولوجي في تطبيق المنهج العلمي أثناء دراساته الميدانية على طرق وتقنيات بحث معينة أهمها:

الملاحظة بالمشاركة L'observation participante

اعتمدت الانثربولوجيا سابقا كما أسلفنا الذكر على معلومات جاء بها الرحالة و المبشرون و قادة عسكريون وباحثون يعتمدون على خيالهم منطلقا من مكاتبهم بعيدا عن مجتمعات البحث و لكن الانثربولوجيا الحديثة جعلت من الدراسة الحقلية أمرا لازما لجمع المادة العلمية مما أضفى على الدراسات الانثروبولوجية مصداقية أكبر في وصف مجتمعات البحث و تفسير المعطيات والبيانات المستقاة من مجال البحث الذي أصبح بمثابة مخبر علمي.

إن تقنية الملاحظة بالمشاركة تتطلب أن ينتقل الباحث إلى مجتمع البحث. وأن يجد لنفسه مكانا في مجتمع المبحوثين يمكنه من كسب ثقتهم. وأن يشاركهم نشاطاتهم المختلفة والتي تقربه منهم حتى يتضاءل فعل المقاومة فيهم و يطمئنون له ، معتمدا على تسجيل ملاحظاته آنيا في تقارير يومية على شكل كتابات و تسجيلات و صور تمكنه فيما بعد في عملية التحليل. إن هذا التواجد في مجتمع البحث يترك مجالا للمبحوثين للثقة بالباحث، كما يسمح للباحث بفهم المعطيات المادية والثقافية والاجتماعية التي تنظم العلاقات والممارسات في مجتمع البحث. و قد يسمح هذا التقارب بالتخلي عن الأفكار المسبقة من معطيات وتأويلات قد تؤثر على عملية التحليل للمعطيات و التي من واجب الباحث أن تكون موضوعية تعبر عن معتقدات وقيم ومفاهيم وتصورات المجتمع المبحوث مما يمكن من الكشف عن العناصر الموضوعية لبنائه الاجتماعي و الثقافي. إن "الملاحظة بالمشاركة ليست فقط ملاحظة الظاهرة عن بعد. لابد من المشاركة في التفاعلات والتبادلات الجماعية للمجتمع المدروس. هذه المشاركة لا تعني فقط تقاسم الفضاء الزمني والمكاني ولكنها أيضا مشاركة أسرار المجتمع المدروس " (إيفز وينكين Yves Winkin ص ص 159-162)

وتصنف الباحثة إيفيريت هوغيز Everett Cherrington Hughes الملاحظة بالمشاركة في مستويات مختلفة:

- **" مشارك كامل Participant complet**:

الباحث في الميدان يصبح جزءا من المجتمع المغلق قادر على مشاركة الأخبار السرية التي لا يعرفها العالم الخارجي عن المجتمع المدروس.

- **المشارك كملاحظ Participant comme observateur**:

ليست مشاركة تامة بل هي مشاركة في النشاطات التي تسمح للحاضرين بوضع الباحث في إطار الدور الذي هو موجود للقيام به.

- **الملاحظ كمشارك Observateur comme Participant** :

يسمح للملا حظ بالاندماج في النشاطات العامة و التي تتعلق بالأفراد الموجودين في الوضعية البحثية.

- **ملاحظ كامل Observateur complet**:

دور الملاحظ هو دورا "تمثليا "أكثر منه حقيقيا لأنه يفرض في جماعة معينة و مجتمع معين لفرد معين و في اطار حدود للتواصل بطريقة لا تكشف عن "أسرار"مجتمع البحث ". (Hugues et alii 1952).

ونستنتج من هذا التصنيف أن وضعية الباحث اتجاه موضوع البحث ليست ثابتة في جميع الأحوال بل إن لكل باحث وضعا خاصا انطلاقا من علاقته بالمبحوثين ومن الزاوية التي يختارها أو التي تتاح له لتطبيق تقنية الملاحظة بالمشاركة. وهذا ما تبرزه الباحثة الأنتروبولوجية Jeanne Favret-Saada حيث تؤكد أن " التفاعل بين الأفراد واتجاه بعضهم و عندما يريد الانثربولوجي فهم هذه العلاقات ،لابد أن يترك الباحث نفسه للتأثر بهذه التفاعلات دون البحث عن فهمها ،أو البحث فيما سيتوصل إليه لأن الملاحظة تثبّط المشاركة والمشاركة تهمش الملاحظة. إذا أخذنا بالمبدأ الفرنسي: أن الأفراد ظاهرون عيانا، وأخذنا بالمبدأ الأمريكي: أن الأفراد غير ظاهرين عيانا فالملاحظة بالمشاركة ممكنة تماما. (Yves Winkin p 161) ومعنى ذلك أن يتعامل الباحث مع مجتمع البحث بعفوية أكبر. يتحرر من قيود الدور الذي هو موجود من أجله فيسمح له ذلك بالتحرر والاندماج الفعلي في مجتمع البحث متخلصا بذلك من أنواع المقاومة التي يفرضها دوره عليه في البحث. هذا التحرر يجعله يستجيب للتفاعلات المحيطة به بردود أفعال حقيقية غير مفتعلة تساعده في فهم الظواهر لأنه يعايشها بمشاعر حقيقية.

إن الملاحظة بالمشاركة ليست مجرد الملاحظة للظاهرة عن بعد بل هو تقمص دور فعال في هذه الملاحظة حيث ترتقي مشاركة الباحث إلى التعايش مع الظاهرة المدروسة من خلال معايشة مجتمع البحث مع القدرة على الاحتفاظ بموضوعية التعامل معها. ويتوجب على الباحث أن يراعي زمان و مكان الملاحظة والمشاركة والمعطيات المحيطة بهذه المشاركة فالآمر " لا يتعلق فقط بالكتابة و أخذ نقاط و أنما في قراءة ما هو مكتوب ،كيفية صياغة وبناء الظواهر الملاحظة،أو بالأحرى عملية التحليل تصبح مادة لردود أفعال جديدة قد تختلف عن تلك التي صيغت فيها ". (Sophie Caratini 1999 ص 40).

وإذا كانت الملاحظة بالمشاركة هي التقنية الأساسية في البحث الأنتروبولوجي فإن الباحث كثيرا ما يجد نفسه مضطرا للاعتماد على تقنيات مساعدة تمكنه من تدارك واستكمال ما لم يتمكن من الحصول عليه من خلال معايشته لمجتمع البحث. وتتمثل هذه التقنيات فيما يلي:

تقنية المقابلة L'entretien

في كتابها حول تقنيات البحث les techniques d'enquête تحذر نيكول بارتيبNicole Berthier من أن " المقابلة في البحث الميداني ليست ثرثرة أو تجاذب أطراف الحديث أو جدال لهدف الإقناع ولا استجواب أمني أو اعتراف. إن المقابلة هي حلقة تواصل بين الباحث والمبحوث حول موضوع معين. إن الباحث هو من يدير المقابلة ويستوجب أن يتميز بمهارات مهنية ليتمكن من تحفيز المبحوث باهتمام ولطف للاستجابة بالشكل الذي يمكن الباحث من الحصول على المعلومات الصحيحة وليس على الانطباعات ." (Berthier 2000 p51)

والمقابلة نوعين موجهة وغير موجهة. ونحن نعتقد أن طبيعة البحث الأنتروبولوجي تجعل من المقابلة الغير موجهة التقنية الأنجع خاصة وأن التوجه الحديث في البحوث الانتروبولوجية لا يعتمد على بناء الفرضيات المسبقة بل يدخل الباحث إلى الميدان بأكبر قدر من الحرية في التعامل مع موضوع البحث والمبحوثين. إن هذا التوجه أصبح مكرسا بعدما تنامى وعي الباحثين في العلوم الاجتماعية بأن على الباحث أن يسعى من خلال بحثه للوصول إلى إجابات للأسئلة التي تفرضها طبيعة الموضوع لا تلك الأسئلة التي يطرحها الباحث انطلاقا من اهتماماته الخاصة. كذلك نعتقد أن الفرضيات في البحث هو استلاب من حيث أن الباحث يتحول إلى عبد لتحقيق تلك الفرضيات.

وتتميز تقنية المقابلة الغير موجهة على نظيرتها المقابلة الموجهة من حيث أنها تسمح للمبحوث للتعبير عن ذاته دون عوائق نفسية فالباحث الانتروبولوجي يحاور الإخباريون دون اللجوء إلى الأسئلة المعدة مسبقا أو الأسئلة المغلقة. إنه يفتح مجالا للحوار والحديث حول موضوع مستخدما استراتيجية منظمة ليمكن المبحوث من التعبير عن ذاته وقيمه ومعتقداته وممارساته دون الإحساس بالضغط كما هو الحال عندما يتعلق الأمر بالأسئلة المباشرة والموجهة التي تتطلب التفكير وتتيح المجال لتحويل الأفكار وتزييفها. إن المقابلة الغير موجهة تتيح الاسترسال الذي إذا ما تمكن الباحث من إدارته بلباقة من خلال التدخل في الوقت المناسب وبالشكل المناسب لتمكن من جمع أكبر مادة عن المبحوثين.

وحتى وإن كان الباحثون في المجتمعات الحديثة والمتمدنة منها يعتمدون على المقابلة الموجهة فإن البحث الأنتروبولوجي في اعتقادنا لا يصل إلى أهدافه والنتائج المرجوة إلا إذا اقتحم الباحث بالشكل الفعلي مجتمع البحث ولازمه لفترة زمنية كافية. ولا يتأتى ذلك إلا من خلال المعايشة وهي التقنية التي تتعدى الملاحظة بالمشاركة لأن الباحث لن يصبح متميزا عن المبحوثين في أذهانهم.

تقنية سيرة الحياة Le récit de vie

تتلخص في تدوين أهم الأحداث التي تمر في حياة أفراد المجتمع بحيث يروي الأفراد ما حدث لهم خلال مسار حياتهم من الميلاد إلى لحظة المقابلة ، و تستلزم هذه الطريقة الثقة بين و الباحث الاخباري حتى يروي المخبر الأحداث دون مقاومة مما يدّعم مصداقية المعلومات المدلى بها.

"اعتمد الباحثون الانثربولوجيون في دراساتهم الحقلية في المجتمعات البدوية على تتبع تاريخ عدد من الأشخاص الذين اعتبروهم "نماذج"معبرة عن الثقافة البدوية ، و الذين استطاعوا أن يكسبوا ثقتهم إلى حد الحديث معهم عن حياتهم الشخصية والأحداث التي عاشوها في المراحل العمرية المختلفة"(محمد محجوب 2005 ص 61)،تمكن هذه النماذج الباحث من التعرف على المعطيات التي تستدعي سنوات من المتابعة و التي يفيد تتبع سير الحياة في معرفتها و تحليلها كانتقال الخبرات من جيل إلى جيل وتحديد مقومات اختيار الأفراد للمركز الاجتماعي المتميز ، وتطور الشخصية و تميزها في الحياة البدوية .كما تسمح هذه الطريقة بتتبع الروايات و الأساطير التي تأسست عليها المجتمعات.

طريقة الاختبارات النفسية:

طريقة تستخدم لتحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع موضوع الدراسة ،وهي تستخدم نادرا مقارنة بالاختبارات النفسية التي أدخلها الانثروبولوجيون الثقافيون المنحدرون من تخصصات أخرى وتعتمد جميع هذه التقنيات المرتبطة أساسا بعلم النفس، في تحديد العلاقة بين الشخصية و الحضارة في مجتمع ما.فهي تهدف إلى "قياس سلوك مجموعة من الأفراد مرة واحدة و في وقت واحد بواسطة فاحص واحد " (صلاح أحمد مراد 2002 ص 239) .

و تستعمل الاختبارات النفسية في الانثربولوجيا لأنها مجموعة مرتبة من المثيرات أعدت لكي تقيس بعض السمات العقلية أو السمات النفسية لعينة ما من الأفراد بصورة كمية أو كيفية ، و يعرفها فؤاد أبو حطب أنها طريقة منظمة للمقارنة بين الأفراد أو داخل الفرد الواحد في السلوك أو عينة منه في ضوء معيار أو مستوى أو محك (صلاح أحمد مراد 2002 ص 230) .و تستخدم الاختبارات النفسية في الانثربولوجيا الثقافية أكثر من الانثربولوجيا الاجتماعية بهدف دراسة وتحديد العلاقة بين الشخصية والمكونات الحضارية والثقافية للمجتمع.

طريقة المقارنة:

تهدف إلى استخدام المعلومات الوصفية لفهم البناء الاجتماعي و الأنساق الثقافية عن طريق الكشف عن الوظائف والتأثيرات المتبادلة بين النظم و تحليلها،و من ثم مقارنتها بمثيلاتها في المجتمعات الأخرى ،"ويجب عند المقارنة استخدام الدراسات الميدانية التي يمكن الاعتماد عليها و الثقة في موضوعيتها ، و يقصد بذلك الدراسات الميدانية التي يقوم بها المتخصصون في الانثروبولوجيا بفروعها المختلفة ، أما الدراسات الوصفية التي يقوم بها الرحالة و رجال الصحافة و غير المتخصصين فهي لا تصلح للمقارنة . " (عاطف وصفي دون سنة ص 172).

وقد اعتمدت الدراسة المقارنة لدى نيكولا ماكيافيللي Nicolas ٦Machiavelli في مجال السياسة،وجون فريكيسون ماكلينان John Fergusson McLennan في دراسته لتطور الزواج و العائلة، شارل لويس دي سيكوندا المعروف بمونتسكيو **Charles-Louis de Secondat (Montesquieu)** للنظم و القيم السياسية في تكوين الحكومات،ويرى ايفانز بريتشارد أن المقارنة "تعتبر من الطرق الأساسية في كل العلوم ،و تعتبر من العمليات الأولية في الفكر الانساني و أنه إذا كان في الامكان وجود قضايا عاملة تنظم العلاقات الاجتماعية و ما يحكمها من علم فلا يمكن أن تقوم هذه القضايا إلا عن طريق المقارنة "(محمد عبده محجوب 2005 ص 244).

الطريقة الجينيالوجية approche généalogique

طور هذه الطريقة البنيويون واستخدمت في دراسة المجتمعات البدائية و البدوية التقليدية نظرا لطبيعة العلاقات فيها، وهي تتأسس على الدراسة البنيوية لشجرة النسب l'arbre généalogique وتقسم هذه الطريقة الجماعات في المجتمعات المدروسة حسب أشجار الأنساب "الفردية" و "القبلية" و "العرفية" .

تتبع أشجار الأنساب طريقة تسمح باسترجاع ذاكرة أفراد العائلة وكل الأحداث التي لها دلالات تمكننا من التعرف على تاريخ الأسرة و الانتماء العائلي و أن الأفراد ليسوا نتاج أبناءهم فقط بل هم نتاج عالم من قبل يتموقعون في منظور تحول و انتقال من جيل إلى جيل يدفعنا للبحث في الجذور و الهوية، وتستخدم الطريقة الجينيولوجية للبحث في التحولات و الظواهر المتواترة من جيل إلى جيل و تكشف عن الأسرار العائلية وتداول الخرافات ،كما تسمح بالتعرف على آثار الصدمات غير المتجاوزة من طرف الأفراد و وضعيات الأطفال و تحولاتهم و تأثير صدمة الموت في اللاشعور الجمعي. تأخذ هذه الطريقة بعين الاعتبار أيضا الأدوار العائلية و القواعد لفهم النماذج التحولية في لعب الأدوار داخل العائلات زفي فضاءلت المجتمع المحلي. كما تسمح الطريقة الجينيالوجية بالتعرف على الذات العائلية والتوترات الاجتماعية من علاقات وتفاعلات وسلوكات فردية واجتماعية على مختلف المستويات: الاقتصادية من خلال أسلوب الانتاج وأنماط المعيشة والكسب والاهتمامات المهنية. السياسية من خلال تطور القيادة داخل الجماعة وتمثل الزعامة. إن هذه الطريقة تسعى إلى فهم التوترات الباطنية من خلال ماهو ظاهري في العائلة ومنه في المجتمع.

ولقد ساعدت نظريات كل من: جون بوان John R. **Bowen** و جوناتان فريدمان Jonathan **Friedman** **و ميشال غيران** Michel Guérinفي فهم التنظيمات العائلية. و يعتمد الباحث الانثربولوجي على "أشجار الانساب الفردية" أكثر لأنها تدرس بعمق العلاقات القرابية و النماذج الثقافية ومعاش الأسر و أنماط الاختيار الزواجي خاصة في المجتمعات القبلية حيث يهتم الأفراد بتتبع انتماءاتهم القرابية و انتقال و تداول النماذج الثقافية عبر الأجيال ،بالمقابل يظهر ذلك الاهتمام ضعيفا في المجتمعات الحضرية أين تتباعد العلاقات القرابية و تظهر العلاقات مرتبطة أكثر بالمصالح المشتركة و الاتجاهات كما هو الحال في التجمعات السكانية الحديثة.

استخدام الوسائل السمعية البصرية في البحث الانتروبولوجي

إن توظيف و استخدام أجهزة الصوت و الصورة و التصوير السينمائي و الفيديو من أهم الوسائل الوظيفية التي أصبحت في متناول الباحثين لتدوين وتسجيل مواضيع الانثربولوجيا المختلفة خاصة تلك المتعلقة بالتراث الشعبي وعناصر الثقافة المادية والطقوس والفلكلور و غيرها ،فهي تسمح للباحث باجترار ما يشاهده عيانا دون اهمال لأي عنصر وإمكانية العودة إليه و تكراره لفهمه بدقة ،فالصورة عندما تشاهد في مرات عديدة تكشف عن مكنوناتها أكثر كما أن التسجيل الكتابي مرهق و يتعرض في أحيان كثيرة للخلط والسهو والنسيان.ويذكر محمد بن صالح أن "فهم الصورة لا يرتكز فقط على المفاهيم و المضامين الاجتماعية و الثقافية ، و لكن على القدرة أيضا على الربط بين المرجعية و تمثّلاتها في الصورة، وللأسف أن الكثير من الانثروبولوجيين الآن محصورون في فهم الظواهر اللغوية و يهملون المقاربة السيميائية. الصورة هي نتاج الآن فهي تكشف عن الرمزية في المجتمع ،عن استيهاماته و مخاوفه كما تسمح بإعادة تركيب التمثلات الذهنية لفترة معينة و تطورها في المجتمع من خلال الوسائل السمعية والبصرية " (أي مستقبل للأنثربولوجيا في الجزائر؟منشورات CRASC نوفمبر 1999 ص ص103-107).

إن التكنولوجيا الحديثة تسمح بحفظ "المجتمعات البدائية" الآيلة للزوال من أن تزول من ذاكرة الانسانية ،كما تقتصد الوقت و الجهد في التحليل و المعايشة الميدانية .كما أن الوسائل السمعية و البصرية و منطلقا من امكانية التحكم بالصورة من خلال مشاهدتها مرات و مرات و امكانية التوقف و اعادة النظر و التركيز على عناصر دون الأخرى ،أو دراسة كل ظاهرة على حدى يوفر الكثير من المعطيات الجزئية و الكلية ،فمثلا نجد أن في وادي ميزاب يتعذر تصوير عرس و إنما يسمح فقط بالمشاهدة العيانية ،هذا يجعل الكثير من المعطيات تفقد مصداقيتها لأن الانسان غير قادر على الاحتفاظ بكل المعطيات في آن واحد في حين يسمح التصوير بالكشف عن الأزياء الخاصة بالعرس و التي لها رمزيتها الخاصة ،الكشف عن قيم التضامن الخاصة بنوع الطعام المقدم في الولائم،الرقص و الغناء وتمثلاته في المجتمع

الميزابي،الأفرشة و الاستقبال،دخول العريس و الدّخلة،إن دراسة كل هذه المعطيات يتطلب مجموعة باحثين و حضور الكثير من الأعراس في حين أن امكانية التصوير تسمح باقتصاد الوقت و الجهد ودراسة كل هذه المعطيات دراسة دقيقة متأنية.

التكامل المنهجي في البحوث الحقلية

إن تنوع المواضيع التي تعنى بها الدراسة الانثروبولوجية و طبيعتها تتطلب ليونة في التعامل مع الظواهر المدروسة في جمع المادة الاثنوغرافية التي يعتمد عليها الباحث في التحليل و تطويع طرق وتقنيات البحث لتتلاءم مع أهداف الدراسة الانثروبولوجية " دراسة"القبائل"،ليست فقط دراسة للمجتمعات الأخرى ،و لكنها دراسة مقارنة و ردية مرتبطة بالتساؤل حول مستقبل و قيمة هذه الحضارات " جان بيار وارنييه و فيليب لابورت – تولرة (Philipe Laburthe-Tolra ;Jean-Pierre Warnier p26) ،فالدراسة الحقلية تنتقل بين دراسة تاريخ المجتمعات و التنبؤ بالتحولات الممكنة مما يستدعي تكامل مناهج و طرق تتكيف و تتفق مع أهداف الدراسة و طبيعة الموضوع المراد دراسته .و يلتزم الباحث في البحوث الاجتماعية عموما و في البحوث الانثروبولوجية الحقلية خاصة بمعايير تتعلق بالتخطيط للبحث ذاته و معايير تتعلق بالمجتمع المبحوث و التفاعلات البحثية و الانسانية التي تحدث بين الباحث و مجتمع البحث وتتمثل هذه المعايير في:

- التخطيط للبحث يكون على أساس تحديد الهدف من الدراسة و كذا الطرق و التقنيات والوسائل التي يستخدمها الباحث للوصول إلى المعلومات.
- معايير مجتمع البحث و تتعلق بالمجال الجغرافي و الزماني للدراسة و خطة المشاركة في النشاطات الاجتماعية من خلال المعايشة الميدانية.
- الصعوبة و السهولة في التعامل مع أفراد مجتمع البحث و كيفية الاندماج معهم حيث يلتزم الباحث بالمعايشة مع محاولة التخلي عن ذاتيته في البحث.

إن الانثربولوجيا غنية بمناهج العلوم الاجتماعية التي تساعد على استنطاق الواقع من خلال استخدام التقنيات و الأدوات الكفيلة بجمع المعطيات و تنظيمها و تحليلها بهدف بناء نظريات تكون ملائمة للمجتمع المدروس و امكانية تعميم النتائج على المجتمعات المتماثلة. ولكننا نعتقد أن الانتروبولوجيا يجب أن تنفرد باستخدام المنهج التجريبي في أحسن أوجه استخدامه في العلوم الانسانية والاجتماعية وبالشكل الذي يكاد يقترب من استخدامه في العلوم التجريبية. ولا يتأتى ذلك الملاحظة بالمشاركة كما يعتقد بل بمشاركة أكبر ونقصد بها المعايشة. يجب على الباحث الأنتروبولوجي أن يجد الإمكانيات اللازمة التي تجعله ينظم إلى المجتمع الذي يريد دراسته بشكل لا يثير الانتباه حتى يتمكن من بناء علاقات اجتماعية كافية لبناء الثقة التامة التي تضعه في موضع أفراد هذا المجتمع دون أن يفقد الوعي بكونه باحثا.

المراجع

- أحمد أبو زيد محاضرات في الانثربولوجيا الثقافية دار النهضة العربية بيروت 1978 دون تاريخ
- جمال زكي ، السيد يس ، أسس البحث الاجتماعي ، دار الفكر العربي القاهرة 1962
- جمال محمد ابو شنب ، قواعد البحث العلمي و الاجتماعي – المناهج و الطرق و الأدوات – دار المعرفة الجامعية 2008
- جيلبير دوران الانثربولوجيا رموزها،أساطيرها، أنساقها ترجمة د.مصباح الصمد المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر ط1 1991
- ديبولد فاندالين ، مناهج البحث في التربية و علم النفس ، ترجمة محمد نوفل و آخرون ،مكتبة الأنجلو المصرية 1969
- صلاح أحمد مراد ،أمين علي سليمان الاختبارات و المقاييس في العلوم النفسية و التربوية دار الكتاب الحديث 2002
- عاطف وصفي الانثربولوجيا الاجتماعية دار النهضة العربية بيروت دون سنة
- عبد الكريم غريب ، منهج و تقنيات البحث العلمي ، مقاربة ابستمولوجية ، منشورات عالم التربية ،ط 1 ،1997
- فوزي غرايبة و آخرون ،أساليب البحث العلمي في العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، دار وائل للنشر الطبعة 4 ، 2008
- ليفي ستروس ترجمة :مصطفى صالح الانثربولوجيا البنيوية منشورات وزارة الثقافة و الارشاد القومي دمشق 1977
- ليفي ستروس ، ترجمة:د.مصطفى صالح الانثربولوجيا البنيوية منشورات وزارة الثقافة و الارشاد القومي دمشق 1977
- محمد عبده محجوب طرق و مناهج البحث السوسيوأنثربولوجي كلية الآداب دار المعرفة الجامعية 2005
- موريس أنجرس ، منهجية البحث في العلوم الانسانية ، تدريبات عملية ، دار القصبة للنشر الجزائر 2004
- أي مستقبل للأنثربولوجيا في الجزائر؟منشورات CRASC نوفمبر 1999

- BELLEAU, Pierre (1989), La méthode historique ; Montréal, Cégep de Maisonneuve
- BERTHIER Nicoles : Les techniques d'enquête, Armand Colin Ed, France 2000/
- LABURTHE-TOLRA Philippe &WARNIER Jean-Pierre : Ethnologie et Anthropologie, PUF France 1993.
- MINKIN Yves: Anthropologie de la communication, de la théorie au terrain ;DE BOECK Université édition du seuil2001
- RIVIERE Claude : Introduction à l'Anthropologie, 2ème édition, Hachette France 2011.